تأثير الثقافة العربية في الثقافة الباكستانية

مقيت جاويد*

تمهيد :

إن الإنسان حيوان ثقافي، كما أنه حيوان اجتماعي ولايكون من السهل تعريف سلوكه إلا إذا روي من كلا المنظورين، الثقافي والاجتماعي، فها هي الثقافة التي تكسبه صفات وخواص مميزة تنعكس في فكره وأعماله، كما أن لها الفضل فيما بلغ إليه من مستوى اجتماعي وحضاري. ولذلك تعد الثقافة عنصرا مهما من عناصر التراث الاجتماعي، وبجانب آخر، يرى عدد من علماء الاجتماع بأن الثقافة هي أبرز العوامل فيما يقع من التغير في المجتمع الإنساني. إذا كان التغير في المجتمعات الإنسانية ناتجا عن تأثير عديد من العوامل، كالعوامل الطبيعية، والبيولوجية، والديموغرافية، فإن تأثير العامل الثقافي يفوق العوامل الأخرى في هذا التغير الاجتماعي.[1]

ثم إذا اختلطت ثقافتان في قطعة أرضية لمدة يصعب لهما أن تبقيا في انعزال، ليس لهما إلا أن توثر كل واحدة منهما على الأخرى تأثيرا تبادليا مستمرا، وتتفاوت درجة التأثر والتأثير بتفاوت درجة ومدة الاختلاط بينهما. هذا إذا كانت الثقافتان كلتاهما متساويتين، أما إذا كانت-إحداهما أفضل من الأخرى سياسيا أو اجتماعيا أو دينيا بحيث أن تكون مثلا ثقافة قوم فاتح والأخرى ثقافة قوم مفتوح ، فلا بد أن تكون ثقافة القوم الغالب أقوى تأثيرا من ثقافة القوم المغلوب، وهذا هوما يرى ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع في الإسلام حيث يقول:

"إن المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيه، ونحلته وسائر أحواله وعوائده".[2]

وفي هذه الخلفية نرى أن العرب لم يتأثروا، عكس ما كان يتوقع منهم لقلة عددهم و شدة اختلاطهم بأهل باكستان مباشرة لمدة أربعة قرون تقريبا، من الباكستانيين إلا قليلا، وذلك أيضا مراعاة لظروف المناخ والاجتماع، وأما ما أثروا فيهم في صورة الدين، واللغة والأدب، والعادات والتقاليد والمراسيم، والفنون الجميلة فهو أكثر بكثير.[3]

---

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور

تسرب الثقافة العربية إلى باكستان :

قد وصلت الثقافة العربية في باكستان الحالية بطريق منظم مع الجيش العربي الذي فتح المناطق الممتدة من مكران في إقليم بلوجستان إلى أقصى غاية الحدود الباكستانية بقيادة البطل الشاب محمد بن القاسم الثقفي في سنة 92 الهجرية[4]، وأسس أول دولة عربية في هذه البقعة من الأرض.

ويجدر بالذكر هنا أن محمد بن القاسم وأصحابه ليسوا بأول العرب الذي وطأوا هذه الأرض، بل مازال القواد العرب يقومون بشن الغارات منذ سنة 15 الهجرية في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه، وتكررت مثل هذه المناوات في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه، وفي عهد الخليفة علي رضي الله عنه.[5]

أما الحملة المنظمة الموجهة إلى مناطق باكستان الحالية بهدف إخضاع الملك السندي داهر، وإنشاء دولة عربية إسلامية هناك، فقد قام بها ابن القاسم الثقفي، بأمر الحجاج بن يوسف حاكم العراق والولايات الشرقية، بجيش مكون من ستة آلاف من الفرسان من أهل العراق والشام بخيولهم، وستة آلاف من المشاة من أهل إيران والعرب، ومعهم ثلاثة آلاف من الجمال. وكان السبب العاجل لهذه الإغارة هو كما يبدو "حادثة الديبل". وتفصيل ذلك أن جماعة من اللصوص السنديين قد خرجوا على السفن المارة بالقرب من ميناء الديبل (قرب كراتشي اليوم) التي تحمل الحجاج والتجار العرب والنسوة العربيات، ونهبوا الأموال كما أخذوا المسلمات رمن معهن من الرجال إلى داخل مدينة الديبل، وبعد أن يئس الحجاج من أن يحل المشكلة بطريقة دبلوماسية لجفاف وطغيان الملك السندي، رأى أن يحلها على صعيد عسكري، وذلك بإرسال جيش قوي مزود بكل مايحتاج إليه من الأسلحة والمؤون.[6]

لكن الغارات العربية المتواترة عبر السنين تدل على أن العرب مازالو يفكرون منذ ظهور الإسلام في ضم هذه المناطق إلى مملكتهم العربية الإسلامية، وأنهم يريدون أن ينهضوا بها من جميع النواحي الدينية والفكرية، والعلمية والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والإقتصادية، فظهر أن لإغاراتهم أسبابا أخرى غير سبب حادثة الديبل وفيما يلي نذكر أهمها:

(أ) السبب الديني

للسبب الديني ناحيتان:

الأولى: هي أن الإسلام دين الدعوة والتبليغ، فهو بطبيعته وفطرته لم تدع ــ طوال تأريخه الطويل ــ أي طرف وزاوية من زوايا العالم الإنساني إلا وقد وصل إليها وبلغها دعوة الله ورسوله. وفي هذه الخلفية لا يبدو توصل الجنود العرب في باكستان إلا توسع رقعة الدولة الإسلامية، ونشر دينها في تلك البلاد.

الثانية: قد تدهورت الأحوال المذهبية في هذه البقعة بسبب الصراع الرهيب بين المذهب البرهمي والبوذي. أما عن سبب الصراع، فذلك أن البراهمة الذين قسموا الشعب الهندوكي إلى أربع طبقات، الثلاثة منها مفضلة محببة، والرابعة منبوذة محتقرة، قد طرد الكثيرين من البوذيين من وسط بلاد الهند، فانتشروا في الجنوب والغرب وخاصة في بلاد السند، وجعلوا يتمنون أن تتاح لهم فرصة ليتخلصوا من المظالم المذهبية والطبقية، ويتمتعوا بالحرية الدينية والفكرية.[7]

(ب) السبب الثقافي والاجتماعي:

إن الأوضاع الثقافية والاجتماعية التي خلفتها البراهمة في مناطق باكستان قبل الفتح العربي لها ليست بأحسن حالا من الأوضاع الدينية، قد خمدت الثقافة الهندوكية، واضمحلت حضارتهم، وانحطت معنوياتهم، كما امتد الضعف إلى العقيدة والأخلاق، بالإضافة إلى تلك الإهانات والاحتقار التي انصبت على الطبقات المنحطة. يقول مؤرخ هندي كاشفا عن هذه الحقيقة:

''ظلت بلاد الهند بعامة في مأمن من الغزو الخارجي بعد أن خفت وطأة "الهون"، وأدى هذا الأمن من التهديد الخارجي إلى ضعف الروح القومية وفشل الروح المحاربة، وعاشت الهند تتجرع كأس العزلة والانزواء، فقد قطعت علاقتها بالصين بسبب تطور الأمور في آسيا الوسطى، وسيطرت "سيلان" على مضيق "مالته"، وتوقفت الأمة الهندية عن النمو، واضمحلت الحضارة بسبب الافتقار إلى الدماء الجديدة، والاحتكاك بالحضارات الأخرى، وأصيب المجتمع بالجمود.[8]

(ج) السبب السياسي:

أما السبب السياسي، فله ثلاث نواحي كبيرة، وهي:

أولاً: إن العرب، منذ خلافة السيد عمر رضي الله عنه، كانوا يبغون تأسيس دعائم حكمهم على سواحل السند والهند لكي يمدوا نفوذهم السياسي إلى هذه القطعة الأرضية أيضا.

ثانيا: كان النظام السياسي في بلاد السند والهند موسوما بالبعثرة والفرقة والانقسام، قد انقسمت كل البلاد إلى إمارات يحارب بعضها بعضا.

ثالثا: قد لجأ بعض العرب المتمردين ضد الدولة الأموية، مثل محمد ومعاوية ابنا الحارث العلافي وطائفتهما، إلى ملك السند داهر، وبايعوه بالطاعة خوفا من بطش الحجاج.[9]

(د) السبب الاقتصادي:

إن بمنع ثم نهب السفن التجارية العربية المارة بميناء الديبل أبلغت جماعة اللصوص رسالة أنهم سيتمثلون خطرا للحرية الاقتصادية العربية التي يتمتع بها العرب منذ مئات السنين. وهذا ما لاتستطيع حقا أي قوة كبرى عالمية أن تتحملها دون أن تحرك ساكنا.

مناطق باكستان تحت الحكم العربي المباشرة:

ابتدأ الحكم المنظم المباشر للعرب في باكستان بتولى محمد بن القاسم على أمور بلاد السند، وذلك في سنة 92 الهجرية، ثم مازال العرب يحكمون البلاد حتى أسقط السلطان محمود الغزنوي دولتهم في المنصورة (السند) سنة 416 الهجرية، فهذه الثلاث مائة وخمسة وعشرين عاما تقريباً من الحكم هي ما نسميه ''الحكم العربي المباشر''.

ولمزيد من التفصيل يمكن لنا أن نقسم هذا العصر إلى عصرين:

(1) الحكم العربي في العصر الأموي:

يبتدئ هذا الدور بهجوم ابن القاسم على باكستان، وينتهي بانتهاء الخلافة الأموية في سنة 132 الهجرية، وقد ورد خلالها 11 واليا من قبل الحكومة المركزية. وهم مع ذكر مدة ولايتهم:

1ـ محمد بن القاسم الثقفي (من سنة 92 هـ إلى سنة 96هـ)

2ـ يزيد بن أبي كبشه السكسكي (من سنة 96 إلى سنة 97هـ)

3ـ حبيب بن المهلب (من سنة 97 هـ إلى سنة 99هـ)

4ـ عمرو بن مسلم الباهلي (من سنة 99 هـ إلى سنة 101هـ)

5ـ هلال بن أحور التميمي (من سنة 101هـ إلى سنة 106 هـ)

6ـ الجنيد بن عبدالرحمن المرى (من سنة 106 إلى سنة 111هـ)

7ـ تميم بن زيد العتبي (من سنة 111هـ إلى سنة 112هـ)

8ـ الحكم بن عوانه الكلبي (من سنة 112 هـ إلى سنة 121هـ)

9ـ عمر بن محمد بن القاسم الثقفي (من سنة 121هـ إلى سنة 125هـ)

10ـ يزيد بن عرار الكلبي (من سنة 126 إلى سنة 127هـ)

11ـ منصور بن جمهور الكلبي (من سنة 129 إلى سنة 132هـ)

(2) الحكم العربي في العصر العباسي:

ابتدأ هذا العصر بجلوس الخلفاء العباسيين على عرش الحكومة في سنة 132 الهجرية، وانتهى بزوال الدولة الشيعية العربية على يد محمود الغزنوي في سنة 416 الهجرية بالضبط. وقد وردت أسماء 40 واليا تولوا الأمور قبل سيطرة الشيعة على المنصورة والملتان وهم:

1ـ مفلس السري العبدي (من سنة 132هـ إلى سنة 134هـ)

2ـ موسى بن كعب التميمي (من سنة 134هـ إلى سنة 141هـ)

3ـ عيينة بن موسى التميمي (من سنة 141هـ إلى سنة 142هـ)

4ـ عمر بن حفص العتكي (من سنة 142 إلى سنة 151هـ)

5ـ هشام بن عمرو التغلبي (من سنة 151 إلى سنة 157هـ)

6ـ معبد بن الخليل التميمي (من سنة 157 هـ إلى سنة 159هـ)

7ـ روح بن حاتم (من سنة 159 هـ إلى سنة 159 هـ)

8ـ بسطام بن عمرو التغلبي (من سنة 159 هـ إلى سنة 160هـ)

9ـ روح بن حاتم للمرة الثانية (من سنة 161هـ إلى سنة 161هـ)

10ـ نصر بن محمد الخزاعي (من سنة 161 هـ إلى سنة 161هـ)

11ـ محمد بن سليمان الهاشمي (من سنة 161هـ إلى سنة 161هـ)

12ـ عبدالملك المسمعي (من سنة 161هـ إلى سنة 161هـ)

13ـ نصر بن محمد الخزاعي للمرة الثانية (من سنة 161هـ إلى سنة 161هـ)

14ـ زبير بن عباس (من سنة 162هـ إلى سنة 162هـ)

15ـ مصبح بن عمرو التغلبي (من سنة 162هـ إلى سنة 162هـ)

16ـ نصر بن محمد الخزاعي للمرة الثالثة (من سنة 162هـ إلى سنة 164هـ)

17ـ سطيح بن عمرو التغلبي (من سنة 164هـ إلى سنة 164هـ)

18ـ الليث بن طريف (من سنة 164 هـ إلى سنة 170هـ)

19ـ سالم بن التونسي (من سنة 171هـ إلى سنة 174هـ)

20ـ إسحاق بن سليمان الهاشمي (من سنة 174هـ إلى سنة 174هـ)

21ـ طيفور بن عبد الله الحميري (من سنة 174هـ إلى سنة 175)

22ـ جابر بن الأشعث الطائي (من سنة 175هـ إلى سنة 176هـ)

23ـ كثير بن مسلم بن قتيبه (من سنة 176هـ إلى سنة 179هـ)

24ـ محمد بن عدي التغلبي (من سنة 179 هـ إلى سنة 181هـ)

25ـ عبدالرحمن (من سنة 181 هـ إلى سنة 182هـ)
26ـ أيوب بن جعفر (من سنة 182هـ إلى سنة 183هـ)
27ـ المغيرة بن يزيد المهلبي (مخن سنة 184 هـ إلى سنة 185هـ)
28ـ داود بن يزيد المهلبي (من سنة 185هـ إلى سنة 205هـ)
29ـ بشر بن داؤد المهلبي (من سنة 205 إلى سنة 212هـ)
30ـ حاجب بن صالح (من سنة 212هـ إلى سنة 212هـ)
31ـ غسان بن عباد المهلبي (من سنة 213هـ إلى سنة 216هـ)
32ـ موسى بن يحيى البرمكي (من سنة 216هـ إلى سنة 221هـ)
33ـ عمران بن موسى البرمكي (من سنة 221 إلى سنة 226هـ)
34ـ عنبه بن إسحاق الضبي (من سنة 226هـ إلى سنة 236هـ)
35ـ هارون بن خالد المروزي (من سنة 236هـ إلى سنة 240هـ)
36ـ عمر بن عبدالعزيز الهباري (من سنة 240 هـ إلى سنة 270هـ)
37ـ عبدالله بن عمر الهباري (من سنة 270هـ إلى سنة 301هـ)
38ـ عمر بن عبدالله بن الهباري (من سنة 302هـ إلى سنة 330هـ)
39ـ محمد بن عمر بن عمر الهباري (ما ذكرت مدة ولايته في كتب التأريخ)
40ـ على بن عمر الهباري (استمرت ولايته حتى سنة 375هـ)
41ـ الحكم الشيعي العربي في الملتان (في سنة 375هـ إلى سنة 401هـ)
42ـ الحكم الشيعي العربي في المنصورة (من سنة 401هـ إلى سنة 416هـ)

تأثير الثقافة العربية في ثقافة باكستان الحالية:

وقبل أن نذكر المظاهر التي فيها تجلت الثقافة العربية في أرض باكستان، يجدر بنا أن نبين هنا أن لتأثير الثقافة العربية في ثقافاتنا المحلية مرحلتين، ففي المرحلة الأولى، وهي مرحلة الحكم العربي المباشر الممتد إلى أكثر من ثلاثة قرون من الزمن، نرى أن الثقافة العربية، تحت ظل الدين الإسلامي واللغة العربية، قد أنشات مجتمعا جديدا من دمنة المجتمع السندي المتخلف على طراز مجتمع عربي متقدم. لم تترك ثقافة العرب أي ناحية من نواحي المجتمع المحلي إلا وقد أثرت فيها تأثيرا غيرت صورته، وجعله كأنه خلق من جديد.

يقول ممتاز أحمد بتهان ملقيا الضوء على هذه الحقيقة:

" كان (سكان السند) تثقفوا ثقافة إسلامية في منطقتهم منذ المراحل الابتدائية من حكم العرب، واتخذوا تقاليد العرب وعاداتهم وملابسهم حتى لغتهم التي كانت نالت مكانة عالمية في العالم المثقف في العصور الوسطى. كانت ملابس سكان السند تشابه ملابس العراق وماجاورها من بلدان إسلامية ."[10]

أما المرحلة الثانية، وهي مرحلة ما بعد حكم العرب المباشر وحلول الدولة الغزنوية على أنقاض الدولة العربية، فنشاهد أن جميع مناطق باكستان قد أصطبغت بصبغة الثقافة الفارسية المدعومة من قبل البلاط الغزنوي، لكن لم تنته ثقافة العرب التي بدينها ولغتها وأدبها خاصة مازالت ــ ولا تزال ــ تؤثر قليلا أو كثيرا في المجتمع العربي.[11]

والسبب الاصيل لبقاء الثقافة العربية في هذه المرحلة هو أن عددا لا يقل من أهل العلم والأدب والشرف من بلاد ما وراء النهر وخراسان الذين ينتمون إلى أصل عربي أقاموا في مناطق باكستان، وتوارثوا العلم والنبوغ، والمناصب الدينية نسلا بعد نسل، وكثر عدد هذه الأسر والقبائل في عصر السلطان شمس الدين التمش، والسلطان غياث الدين بلبن، والسلطان علاء الدين الخلجي.[12]

وإذا أحصينا الأسر والقبائل الباكستانية تنتمي أو تدعي بانها تنتمي إلى أصل عربي ، نجد عدد أفرادها ملايين. ونخص بالذكر منها منها قوم البلوص مع قبائله العديدة وهم ملايين عددا، و يسمى إقليم واحد من باكستان باسمه، وهو " بلوجستان "، وأسرة السادات، وهم أولاد فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلوة والسلام وزوجة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتتفرع منها، على سبيل المثال، أسر حسنى، وحسيني، وجعفريّ، وكاظمي، وزيدي، ونقوي، وجيلاني، وكرديزي، وبخاري، ومشهدي، وشيرازي وغيرهم، وأسرة قريش وهم أولا قريش غير السادات وتتشعب منهم أسر صديقي، وعلوي، وفاروقي، وعثماني، وعباسي، وهاشمي، وغيرهم.

مظاهر الثقافة العربية في باكستان

(1) انتشار الإسلام في أرض باكستان

إن وصول ثم انتشار الدين الإسلامي في مناطق باكستان يعد من أجل وأهم من مظاهر الثقافة التي جاء بها العرب إلينا، وكانت لهذه العملية مرحلتان:

(أ) المرحلة التمهيدية:

بدأت هذه المرحلة من سنة 15 الهجرية حينما هجم لأول مرة على منطقة مكران، وانتهى بالفتح العربي المنظم للسند والبنجاب في سنة 92 الهجرية على يد ابن القاسم، وفي هذا الدور بقي تأثير الإسلام في منطقة مكران، ولم يتجاوز إلى المناطق الداخلية السندية، وسبب وذلك يرجع إلى أن العرب كانوا لايفضلون الإقامة في السند و سواحله لخطورة القراصنة والطغاة من قوم الزط وقوم الميد.[13]

(ب) المرحلة المنظمة:

وبفتح العرب لبلاد السند بدأ عهد للإسلام، إذ أنه مامضت سنوات عديدة حتى اعتنق الإسلام عدد كبير من السكان المحليين ــ ودليل ذلك أن عدد الجيش العربي الذي هجم الملتان كان خمسين ألفا من المشاة والفرسان، وتسعة أعشارهم من المحليين.[14]

وكان لهذه السرعة المحيرة التي بها وصل الإسلام إلى قلوب الناس أسبابا وهي:

أولاً: كانت هذه المنطقة في الوضع الفوضوي دينا وفكرا، كما كانت أصحاب الديانة البرهمية لا يضيعون أي فرصة لقمح أصحاب الديانات الأخرى، فحينما دعاهم الإسلام إلى الحرية والمساواة في سائر المجالات، لم يتأخر المظلمون في قبوله.

ثانيا: قد وجهت الحكومة العربية إلى الشعب المحلي الدعوة إلى الإسلام، فدخل السكان المحليون الإسلام في صورة الجماعات والقبائل لا بالقوة وإنما عن يقين وإيمان.

ثالثا: اهتم العرب ببناء المساجد في كل مدينة كبيرة يفتحونها، كما كانوا يعينون أئمة وقضاة لإدارة الشؤون التعليمية والدينية، ولاشك في أنه كان لتلك المساجد دور كبير في جذب انتباه السنديين إلى الإسلام.

رابعا: إن الامتزاج والاجتماع في الدم بين العرب وبين السكان المحليين قد تسبب كثيرا في زيادة انتشار الإسلام في مناطق باكستان، وذلك أن العرب المسلمين قد تزوجوا بنساء محليات وأنجبوا منهن أولادا كثيرة. ومن القبائل العربية التي اختارت الإقامة هنا بعد الفتح العربي تشتهر بالذكر:

قبيلة بني بكر بن وائل، وقبيلة بني عبدالقيس ، وقبيلة بني تميم، وقبيلة بني الأزد، وقبيلة بني ناجية، وقبيلة بني ثقيف، وقبيلة بني حمير، وقبيلة بني كنده، وقبيلة بني أنمار، وقبيلة بني مرة، وقبيلية بني مهرة، وقبيلة بني سهم، وقبيلة بني نزار، وقبيلة بني مضر.[15]

(2) ذيوع اللغة العربية في باكستان:

إن لذيوع اللغة العربية في باكستان جوانب عديدة وهي:

أولا: احتلت هذه اللغة مكانة فائقة وسامية عبرالعصور. كانت هذه اللغة هي اللغة الرسمية في دوائر الحكومة العربية في جميع المدة التي حكم فيها العرب باكستان. وكذلك كانت تفهم في أسواق السند كما تحدث عنها الرحالة والجغرافيون مثل المسعودي، وابن حوقل، والأصطخرى الذين زاروا المنطقة في القرن الرابع الهجري.[16]

وبعد انتهاء الحكم العربي المباشر في سنة 416هـ، أخذت اللغة العربية تفقد مكانتها الرسمية والإدارية لاصطباغ جميع المناطق بصيغة الثقافة الفارسية، لكن هذا الانقلاب والتغير الثقافي لم ينهب اللغة العربية أهميتها العلمية والدينية، فظلت تستخدم في مجالات العلوم الدينية. ولذلك نرى أنه قد برز من مناطق باكستان الحالية فحول المحدثين، والمفسرين، وعلماء العلوم العقلية الذين صاورا مأوى الناس من بلاد العرب وغيرها. ففي العصرين الغزنوي والغوري نخص بالذكر منهم: رابعة بنت كعب القزداري، وعمر بن إسحاق اللاهوري، وعلى بن عمر اللاهوري، وعلي بن عبدالله السندي، والحسن بن علي السندي، ومسعود بن سعد بن سلمان اللاهوري، ومحمد إسماعيل اللاهوري، ومحمد بن محمد اللاهوري ، ونصر الدين بن أحمد السندي، وعبدالصمد بن عبدالرحمن اللاهوري، ومنهاج الدين عثمان بن إبراهيم اللاهوري، وفي عصر سلاطين دهلي نبغ منهم: الحسن بن محمد الصغاني اللاهوري، وأبوبكر إسحاق بن تاج الدين الملتاني، وأمير كبير سيد علي الحمداني الكشميري، وسيد بن سيد جمال الملتاني، وبدر تاج اللاهوري ، وسيد محمد الحمداني.[17]

وفي العصر المغولي يجدر بالذكر هنا: عبدالحكيم السيالكوتي، وابنه عبدالله، ومحمد عابد اللاهوري، وتقي بن محمد اللاهوري ، ورحمت الله بن عبدالله السندي، وعنايت الله القادري، ومحمد هاشم بن عبدالغفور، وملا نور محمد الكشميري، ومحمد صديق اللاهوري.

وفي عصر الاحتلال الاستعماري برزمنهم: عبدالعزيز بن أحمد الملتاني، وفيض الحسن السهارنبوري، والقاضي طلا محمد البشاوري، والمفتي عبدالله التونكي، ومولانا أصغر علي روحي، والدكتور المولوي محمد شفيع، ومولانا عبدالعزيز الميمن.[18]

أما اللغة العربية بعد إنشاء باكستان فكان من المتوقع بل من المتأكد أن تحتل هذه اللغة مكانة أسمى وأولى من بين اللغات في بلاد باكستان التي قامت باسم الإسلام، لكن حدث العكس،

فبدل أن تفوز هذه اللغة بدرجة محسودة عليها، مازالت – وربما لاتزال – تناضل اللغات الأخرى وخاصة الإنجليزية لاستبقاء هو يتها وحياتها.

ثانيا: قد أثرت اللغة العربية في جميع اللغات الباكستانية تأثيرا حتى أننا نستطيع أن نقول بأنه قد أصبح من غير الممكن أن يكتب الكاتب، أو ينظم الشاعر بهذه اللغات مثل الأردية، والبنجابية، والسندية، والبشتوية، والبلوتشية بحيث تكون كتابته أو شعره خاليا من الألفاظ العربية، مفرداتها ومصطلحاتها. ثم ما يوضح مدى تأثر اللغات الباكستانية باللغة العربية أنه لم يحدد تأثرها بها في مجال انتقال المفردات فقط، بل امتد إلى حقل القواعد، وكتابة الخط أيضا. هو شي نادر الحدوث بين اللغات إلا بعد صراع طويل بين اللغتين.

مظاهر تأثير اللغة العربية في اللغات الباكستانية:

أما من مظاهر تأثير اللغة العربية في اللغات الباكستانية، فمنها:

(أ) يستخدم معظم الأبجدية العربية في جميع أبجديات اللغات الباكستانية، ففي اللغة الأردية والبنجابية اللتين يصل عدد الحروف الكتابة لكل واحد منهما إلى أحد وخمسين حرفا يوجد فيهما جميع الحروف الهجائية العربية الثمانية والعشرين، وكذلك تستخدم الأبجدية السندية التي يصل عدد حروفها الهجائية إلى اثنين وخمسين حرفا، والأبجدية البشتوية التي يصل عدد حروفها إلى أربعين حرفا جميع الحروف الهجائية العربية. أما الأبجدية البلوتشية التي لها ثلاثون حرفا، فما يستخدم فيها من الحروف الهجائية العربية فهو أحد وعشرين عددا.

(ب) يستخدم عدد لا يحصى من المفردات، والمركبات، والجمل العربية في اللغات الباكستانية. فما اقترضت اللغات الباكستانية من اللغة العربية من المفردات، اسماء، وأفعالا، وحروفا، فهو يمثل من أربعين إلى خمسين في المئة. فهذه المفردات المنتقلة من العربية يتصل بجميع مجالات الحياة في باكستان من أمور الدولة، والصناعات، والحرف، وآداب المجتمع، والطعام، والشراب واللباس، والألوان، والأعياد، والعادات، والتقاليد، والفنون الجميلة، كما أنها تحتوي على معظم أنواع الأسماء الجامدة والمشتقة مثل أسماء الفاعل، والمفعول، والتفضيل، والآلة، والزمان، والمكان، والصفة المشبهة، والمبالغة، والأسماء المفردة، وصيغ المثنى، والجموع، ومن الجموع السالم، والمكسر بأوزانهما المتعددة، وعلى أنواع الفعل مثل الفعل الماضي، و المضارع، وعلى أنواع الحروف مثل حروف العطف، والجر، والنداء، فهذه الأنواع كلها مستخدمة في اللغات الباكستانية.[19]

(ج) تذكر في مؤلفات اللغات الباكستانية الشعرية والنثرية آيات من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والأمثال، والأشعار العربية.[20]

(د) وقد تسمى الكتب المكتوبة في هذه اللغات بأسماء عربية. قد يعتقد بعض الناس منذ سماع هذه الأسماء أول مرة أنها أسماء كتب عربية إلا أنه بمجرد قراءة ما بداخلها يعرف أنها مؤلفة بلغة أخرى غير العربية.

(3) تأثير الأدب العربي في الآداب الباكستانية:

حينما اتصل العرب بعد الفتح بأقوام مختلفة مثل الفرس، والهند واليونان، تأثرت آدابهم بالثقافة العربية وأدبها تأثيرا ملموسا، وتغيرت حياتهم الأدبية. فلما ظهر الأدب الأردي، جعل يحتذي الأدب العربي مباشرة، وعن طريق الأدب الفارسي، في موضوعاته وأساليبه، كما استعار منه معاني، ومفاهيم، ومصطلحات كثيرة، ثم تلاه آداب اللغات الباكستانية الإقليمية. وها نحن نعدد معظم النواحي التي يتضح فيها تأثير الأدب العربي في الأدب الباكستاني:

(أ) تشابه بين العروض العربي والأردي:

تأثر عروض الآداب الإقليمية الباكستانية عامة، والعروض الأدي خاصة بالعروض العربي، ولو عن طريق العروض الفارسي. فالعروض والأردي كلاهما يتفقان في نظام التفعيلات، وفي بعض عناصرها، وفي بعض الزحافات، والعلل، وفي بعض قواعد التقطيع. أما البحور العربية الشعرية، فالأوزان الغالبة منها في الأردية هي الرمل، والهزج، والمضارع، والمجتث، والخفيف، والمتقارب.[21]

(ب) تواجد أنواع الشعر العربي في الشعر الباكستاني:

توجد أنواع الشعر العربي في الآداب الأقليمية عامة، وفي الأدب الأردي خاصة. فمنها: القصيدة، والقطعة، والغزل، والتشبيب، والمدح ، والهجو، وفخريه (الفخر)، و مرثيه (الرثاء)، والخمريات، والرباعي (وهي مثل الرجز العربي)، ومستزاد، وتركيب بند، وترجيع بند (وهي مثل الموشحات).[22]

(ج) تواجد أنواع البلاغة العربية في الأدب الباكستاني:

قد اتخذ شعراء اللغات الباكستانية قوانين و مصطلحات بلاغتهم من البلاغة العربية، فمعظم المحسنات اللفظية والمعنوية في هذه اللغات ماخوذ من البلاغة العربية، مثل تشبيه، واستعاره، وحقيقت، ومجاز، وصنائع طباق، وتدبيج، وإيهام، ومقابله، ولف نشر، وحسن تعليل وتسجيع، وسجع، وترصيع، وموازنه وغيرها.[23]

(د) المعاني والمفاهيم العربية في الأدب الباكستاني:

وفي الأدب الباكساني نجد عددا كبيرا جدا من المعاني والمفاهيم التي وردت فيه من الأدب العربي مباشرة، وبواسطة الأدب الفارسي. ويمكن تقسيم هذه المعاني والمفاهيم إلى قسمين، القسم الأول يشتمل على الأمثال التي هي ترجمة الأمثال العربية أي أنها تشترك في المعني وتختلف في اللفظ، مثل:

الاحتياج أم الاختراع	ضرورت ايجاد کی ماں ہے
الغريق يتشبث بالحشيش	ڈوبتے کو تنکے کا سہارا
العاقل تكفيه الإشارة	عاقل کو ایک اشارہ کافی ہے
لكل داء دواء	ہر مرض کی دوا ہے
الشيء بالشيء يذكر	بات سے بات یاد آتی ہے

والقسم الثانى يشتمل على المعاني والمفاهيم التي هي ترجمة أو ماخوذة من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو الآثار العربية من المعاني والمفاهيم التي وردت في الأدب الباكستاني بهذا الطريق. نذكر، على سبيل المثال، خروج آدم من الجنة (من القرآن)، والشفقة على الناس (من الحديث).

(هـ) ترجمة القصص والقصائد العربية إلى اللغات الباكستانية:

أغرم الشعراء الباكستانيون بقصص عربية، فنظموها في لغاتهم. وهذه القصص بعضها قصص دينية كقصة يوسف وزليخا، ومعراج نامه (وقعة الإسراء)، وكربلا نامه (وقعة مقتل الحسين)، وبعضها الآخر قصص غير دينية كقصة ليلى والمجنون، كما ترجمت قصائد عربية نظما ونثرا إلى اللغات الباكستانية، وخاصة القصائد التي نظمت في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، أشهرها قصائد حسان بن ثابت الصحابي، وقصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير الصحابي، وقصيدة البردة للإمام البوصيري.[24]

(و) شخصيات وأماكن عربية في الأدب الباكستاني:

تحت تأثير الثقافة العربية قد وردت في الأدب الباكستاني عن طريق الأدب العربي أسماء شخصيات وأماكن عربية. فمن الشخصيات، على سبيل المثال، محمد الرسول، وآدم، وإبراهيم، ونوح، ويوسف، وعيسى، عليهم السلام، وأبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبوعبيدة، وخالد بن وليد رضي الله عنهم، وأبوالعلاء المعري، وقيس، ومنصور الحلاج ، وجبريل، واسرافيل، وابن بدرون، وإبليس.

ومن الأماكن العربية: الأندلس، وبغداد، والكوفة، والحجاز، وجدة، ودمشق، والعراق، ومصر، والمدينة، ونجف، واليمن.[25]

(4) تأثير الثقافة العربية في عادات الباكستانيين:

إن عادات قوم إنتاج بيئته التي تعيش فيها، كما تتغير بتغير الأحوال الاجتماعية والثقافية، والأوضاع المذهبية والسياسية، والاقتصادية، والمعيارات الأخلاقية. ولذلك أن عادات السكان المحليين كانت تأثرت بعادات العرب وثقافتها حينما ورودوا في هذه الأرض. وكان تاثير الثقافة العربية في العادات المحلية بطريقتين:

أولا: قد محت الثقافة العربية كلية العادات المحلية الهمجية والغريبة التي عجزت على الحفاظ على بقاءها إزاءها، كما أنها لم تمح بعضا منها بل أحدثت فيها تغيرات ومناسبة ملائمة. فمن العادات التي محيت تماما بإتيان العرب في أرض باكستان، نخص بالذكر منها: السجود للملوك، عدم ذبح الحيوانات وخاصة البقر، وأكل لحومها، وحراق المرأة بزوجها، وعدم الختان، والإشتراك في حفلات الرقص والطرب، ومن العادات التي عدلت وأحدثت فيها تغييرات: طول التعزية، والترحيب بالطبول والمزامير، واستعمال الحلي، وترك اللحي الغير المرتبة، ووجود عادات دينية وفكرية غريبة.

ثانيا: روج العرب بعض عادات سلوكهم في مناطق باكستان ومازال الباكستانيون – ولا يزالون ــ يراعونها. ومن أهم العادات العربية المروجة في باكستان:

(أ) النطق بكلمة التوحيد والرسالة:

(أ) تجري عادة الإقرار بتوحيد الله ورسالة نبيه في اللغة العربية مجري الدم في جسد كل مسلم باكستاني، ويسمى هذا الإقرار باسم " أول كلمة " (الكلمة الأولى) أو " كلمة طيبة " في المصطلح المحلي.

(ب) عادة قراءة القرآن:

من المعتاد في المجتمع الإسلامي أن يخصص كل مسلم باكستاني ومسلمة باكستانية بعض وقتهما، أثناء اليوم، لقراءة القرآن الشريف تبركا وتبرعا. ثم هذه أيضا من العادات المعروفة في باكستان أن يبعث بعض الأسر بعض أولادها أو كلها إلى المساجد أو المدارس الدينية لحفظ القرآن، و يعد من المفخرات للأسرة ان يوجد فيها ''حافظ'' أو ''حفّاظ'' للقرآن.

(ج) تسمية الأولاد بأسماء عربية:

ومن العادات المعروفة في جميع باكستان أن تقترح للأبناء والبنات أسماء عربية توضح كونهم عباداالله أو يسمون بأسماء الأنبياء، والصحابة، والصحابيات، ورجال ونساء الدين. فمن أسماء الرجال المعروفة: عبدالله ، وعبدالرحمن، ومحمد، وأحمد، ومصطفي، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ويونس، ويوسف ، وأبوبكر، وعمر، وعثمان وعلي، وعباس، وحسن، وحسين، وغيرهم، ومن أسماء النساء: أمة السلام، وأمة الرشيد، وعائشة ، وخديجة، وفاطمة، ومريم وزينب، ورابعة وغيرهن.

ثم إن هناك عددا كبيرا من الناس الذين يختارون لفظة عربية يسمون بها ولدهم مثل إقبال، وشوكت ، ومشتاق، وذاكر، وغالب، وأسلم، وأكرم، وأرشد ، وافضل للأبناء، وفرحت، وطلعت، وشمع، ونجم، ونور، وصغرى، وكبرى للبنات.

(هـ) انطلاق الألسنة بمحاورات عربية يومية:

إن هناك عددا من الكلمات العربية بالاضافة إلى الأذكار المأثورة ، دخل في المحاورات اليومية للباكستانيين، وأصبحت جزءا للغاتهم. ونخص بالذكر منها: ماشاء الله، وإن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والحمد لله، وسبحان الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وجزاك الله، والسلام عليكم، وعليكم السلام وغيرها.[26]

(5) تأثير الثقافة العربية في الأعياد المناسبات الخاصة في باكستان:

تعد الأعياد المناسبات الخاصة وسيلة هامة لمعرفة ثقافة مجتمع، لأن بها يعبر المجتمع عن أفراحه وأحزانه. وإذا استعرضنا الأعياد والمناسبات الخاصة، نجد فيها كثيرا من ملامح الثقافة العربية، ففي الاحتفال بالعيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى، يوجد تشابه كبير بين المجتمعين العربي والباكستاني مثل تزيين المدن، والقرى، والاسواق بالأنوار والأعلام الورقية والصلاة، ولبس الأئمة الحلل السوداء، ونحر الإبل في عيد الأضحى.

وأما في الاحتفال بعيد ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فيحدث الناس بيئة عربية في كل قرية، فيبنون طرز جبال الحرمين الشريفين، كما يقدمون أشباه غاري حراء وثور ، فيزورها الزائرون، وكذلك يبرز بعض الناس، خاصة الشبان، لابسين اللباس العربي الشعبي الذي يلبس في دول الخليج، ويجولون في الشوارع والأسواق. ومن المناسبات الخاصة الباكستانية التي تعبر عن تأثير الثقافة العربية فيها، يهمنا هنا: إلقاء الأذان العربي في أذن المولود، وتسميته باسم عربي، والختان، والعقيقة، وافتتاح تعليم الطفل باسم الله، ومرسم تعليم الصلاة، والاحتفال بختم القرآن أو مرسم آمين، وعقد الزواج بخطبة عربية، وتلقين العروس والعريس بكلمات عربية، وتوزيع التمور بعد النكاح، وعقد حفلة الوليمة، والدعاء في اللغة العربية للميت عند الدفن وبعده.

(6) تأثير الثقافة العربية في الملابس والأطعمة الباكستانية:

وبالإضافة إلى تقرير الآداب الإسلامية العربية في الطعام واللباس، يوجد تشابه كبير بين الشعبين في حقل الملابس الملبوسة، والأطعمة المطعومة، فمن الملابس التي تشترك فيها كلا الشعبين: الإزار، والبرقع، والجوارب ، والقميص. أما من الأطعمة المشتركة في كلا المجتمعين فهي : الهريسة، والكباب، والكفتة، والثريد، والشعيرية وغيرها.

(7) تأثير الثقافة العربية في الفنون الجميلة الباكستانية:

لم يهتم العرب الأولون بتطور الفنون الجميلة مثل العمارة، والتصوير، والموسيقى في باكستان، ولذلك لايبدو أي تأثير مباشر للثقافة العربية في هذه الفنون الجميلة المحلية، لكن حينما فتح العرب معظم البلاد الشرقية والغربية، واختلطوا بثقافات متنوعة، طوروا الفنون في كل منطقة فتحوها، وفرضوا عليها قواعدهم، فتاثرت هذه المنطقة بتطور العرب لهذه الفنون ولو بطريق غير مباشر.

ففي فن العمارة، نجد هناك بعض الخصائص والعناصر التي تنبئنا عن تاثير الثقافة المحلية بالعمارة العربية الإسلامية المنتشرة أنحاء العالم الإسلامي. فمن هذه الخصائص: تغطية الجدران بالفسيفساء، والبلاطات الخزفية ذات الالوان المختلفة، وكثرة استخدام مايشبه جواسق متفاوتة الأحجام تغطيها قبيبات، والفصوص المقعرة الدقيقة التي تحيط بحافات العقود المدببة.[27]

اما العناصر العربية المعمارية الرئيسة التي نجدها في العمارة الباكستانية، فمنها: المحراب، والمئذنة، والقبة، والعقود.[28]

وفي فن التصوير بلغ تاثير مدرسة التصوير العربية في بغداد إلى التصوير الباكستاني عن طريق المدرسة المغولية في إيران التيّ كانت تتبع المدرسة العربية ببغداد في مميزاتها الرئيسية في القرن الثالث عشر الميلادي، ثم عن طريق المدرسة التيمورية التي ظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي والتي كانت تقوم على أساس الجمع بين المدرستين القديمتين، المدرسة العربية، والمدرسة المغولية.[29]

وفي القرن السادس عشر الميلادي لما ورد المغول في باكستان، أتوا معهم بجميع أساليب التصوير الراقية للتيموريين في أفغانستان والتي امتزجت كلها فيما بعد في مدرسة جديدة تسمى "المدرسة المغولية الهندية".[30]

وفي فن الموسقي ظهر تاثير الثقافة العربية في جوانب تالية:

أولا: إن المتصوفين الذي أتوا من آسيا الوسطى، وكان معظهم من أصل عربي، اخترعوا صنفا جديدا يمسى " سماع " أو " قوالى"، وهما اسمان عربيان لتزكية وصقل القلوب، فصيروا الموسيقى المحلية الوثنية إسلامية.

ثانيا: اخترع المسلمون ألحانا جديدة لها شبه كبير من الحان عربية ــ إيرانية، ويصعب على الرجل أن يميز بينها، وسموا عديدا منها بأسماء عربية، وكان رعيلهم الأول فيه الأمير خسرو. ومن الألحان التي وردت في الموسيقي المحلية، وسميت بأسماء عربية : عشاق ، وعراق ، وحسني، وحجاز، وموافق، وغنم، وقول.[31]

ثالثا: ثم إن هناك عددا من الآلات الموسيقية المحلية التي تسمى بأسماء يرجع إلى اصل عربي، وذلك ينبئنا عن اتصالها بالثقافة العربية. فمن بين الآلات الوترية، طنبورة، ورباب، وعود، ومن آلات النفخ، مزمار، ومن الآلات الإيقاعية، دف، وطبلة.[32]

الهوامش

1 انظر: عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، ص ص31ـ 32

2 انظر للتفصيل:ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، ص ص 86ـ 91

3 الكوفي، علي بن حامد ، فتح نامه المعروف بـ " جج نامه" (في الأردية: أختر رضوي) ص 131

4 انظر: الكوفي علي بن حمد، ص ص 95ـ 100 والبلاذري، أحمد بن يحي، فتوح البلدان ، ج 3 ص ص 530ـ 531

5 الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج 4 ص ص182ـ 181

6 انظر: الكوفي، جج نامه ، ص ص 132ـ 138

7 الطرازي، عبدالله الدكتور، موسوعة التاريخ الإسلامي لحضارة بلاد السند والبنجاب، ج 1 ص ص94ـ 102

8 حسن أحمد الدكتور، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحتين العربي والتركي، ص 175

9 النظر للتفصيل : الطرازي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج 1 ص ص160ـ 161

10 فياض محمود سيد و عبدالقيوم بروفيسر، تاريخ أدبيات مسلمانان باكستان وهند ، ج 1، ص ص36ـ 37.

11 انظر: الندوي رضوان علي الدكتور، اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية الباكستانية ص 42

12 نفس المرجع، ص 43

13 انظر: الطرازي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج 1 ص ص 342ـ 343

14 نفس المرجع، ج 1 ص ص249ـ 250

15 مبارك بوري قاضي اطهر، خلافت راشده اور هندوستان (في الأردية) ص 24

16 لبياناتهم المفصلة انظر: الطرازي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج 1 ص ص 405ـ 406

17 نفس المرجع

18 نفس المرجع

19 للدراسة المفصلة انظر: انعام الحق غازي، الاقتراض اللغوي من العربية إلى الأردية (رسالة جامعية)، ص ص 69ـ 102

20 يمكن ملاحظتها في: مقبول الهي، اردو مين مستعمل فارسي وعربي ضرب الامثال (في اللغة الأردية)

21 انظر للتفصيل: محمد بشير، العروض بين العربية والأردية (رساله جامعية) ص 172

22 نفس المرجع ص 174

23 انظر: حبيب الحق ندوي، باكستان مين فروغ عربي (في اللغة الأدرية)، ص 133 ــ وخديجه شجاعت، فن شاعري (اللغة الأردية).

24 كيان جند الدكتور، اردو كي نثري داستانين، ص ص252ــ 253 – وفياض محمود وعبدالقيوم، تاريخ أدبيات ج 13

25 للتفصيل انظر: عبدالقدوس قاضي، واقبال العلامة، كليات اقبال

26 انظر: حسن إبراهيم الدكتور، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي، ج 2، ص32

27 فريد محمود شافعي، العمارة العربية الإسلامية 605

28 نفس المرجع

29 الباشا حسن الدكتور، التصوير الإسلامي في العصور الوسطى، ص ص 207ــ 208

30 إكرام محمد شيخ، باكستان كا ثقافتي ورثه، ص 94

31 تميمي، محمد جهانكير،جنوبي ايشيا مين هندون اورمسلمانون كي موسيقي، فرق اورفاصله ص 11 للتفصيل انظر: فياض ليلى مليحه، موسوعة الموسيقي العرب والاجانب، ص 594